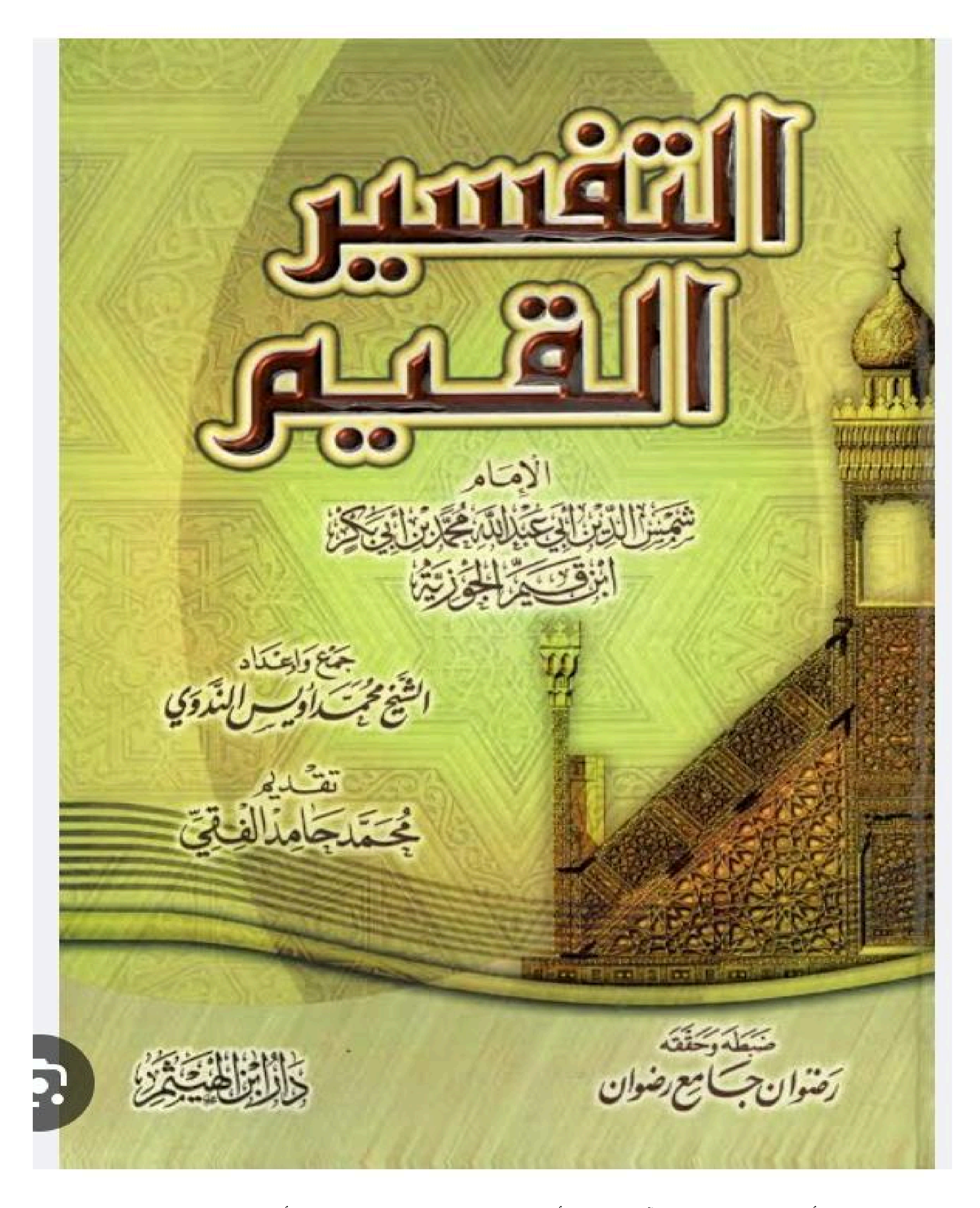


التفسير القيم هو أحد كتب تفسير القرآن الكريم، ألفه الحافظ ابن القيم. جمعه محمد أويس الندوي، وحققه محمد حامد الفقي، وهو مجلد واحد عدد صفحاته 651 صفحة.

نبذة عن حياة ابن القيم

أَبُو عَبْدِ الله شَمْسُ الدِينِ مُحَمَّدٌ بْنُ أَبِي بَكرٍ بْنُ أَيُّوبَ بْنُ سَعْدٍ بْنُ حُرَيْزٍ الزُّرْعِيُّ الدِّمَشْقِيُّ الحَنْبَلِيُّ (691هـ - 751هـ/1292م - 1350م) المعروف باسم «ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ» أو «ابْنِ القَيِّمِ». هُوَ فقيه ومحدّث ومفسَر وعالم مسلم مجتهد وإمام من أبرز أئمّة المذهب الحنبلي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري. نشأ ابن القيم حنبليّ المذهب؛ فقد كان والده «أبو بكر بن أيوب الزرعي» قيّماً على «المدرسة الجوزية الحنبلية»،(1) وعندما شبَّ واتّصل بشيخه ابن تيميّة حصل تحوّل بحياته العلمية، فأصبح لا يلتزم في آرائه وفتاويه بما جاء في المذهب الحنبلي إلا عن اقتناع وموافقة الدليل من الكتاب والسنة ثم على آراء الصحابة وآثار السلف، ولهذا يعتبره العلماء أحد المجتهدين.

وُلد ابن القيم سنة 691هـ المُوافِقة لسنة 1292م، فنشأ في مدينة دمشق، واتجه لطلب العلم في سن مبكرة، فأخذ عن عدد كبير من الشيوخ في مختلف العلوم منها التفسير والحديث والفقه والعربية، وقد كان ابن تيمية أحد أبرز شيوخه، حيث التقى به في سنة 712هـ/1313م، فلازمه حتى وفاته في سنة 728هـ/1328م، فأخذ عنه علماً جمّاً واتسع مذهبُه ونصرَه وهذّبَ كتبه، وقد كانت مدة ملازمته له سبعة عشر عاماً تقريباً. وقد تولى ابن قيم الجوزية الإمامة في «المدرسة الجوزية»، والتدريس في «المدرسة الصدرية» في سنة 743هـ.

سُجن ابن القيم مع ابن تيمية في شهر شعبان سنة 726هـ/1326م بسبب إنكاره لشدّ الرحال لزيارة القبور، وأوذي بسبب هذا، فقد ضُرب بالدِّرَّة (السوط) وشُهِّر به على حمار. وأفرج عنه في يوم 20 ذو الحجة سنة 728هـ وكان ذلك بعد وفاة ابن تيمية بمدة. ويذكر المؤرخون أنه قد جرت له مشاكل مع القضاة منها في شهر ربيع الأول سنة 746هـ بسبب فتواه بجواز إجراء السباق بين الخيل بغير مُحَلِّل. وكذلك حصلت له مشاكل مع القضاة بسبب فتواه بمسألة أن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة يقع طلقة واحدة. وتوفي في 13 رجب سنة 751هـ وعمره ستون سنة، ودُفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق.

سار ابن القيم على نهج شيخه ابن تيمية في العقيدة، كما كان له آراء خاصة في الفقه وأصوله ومصطلح الحديث وغير ذلك من المسائل. واشتهر بمؤلفاته في العقيدة والفقه والتفسير والتزكية والنحو بالإضافة إلى القصائد الشعرية.

كان لابن قيم الجوزية تأثير كبير في عصره، فيشير المؤرخون إلى أَخْذ الكثيرين العلمَ على يديه. وكذلك برز أثره إلى جانب شيخه ابن تيمية في أماكن متفرقة من العالم الإسلامي في وقت لاحق، فكانت حركة محمد بن عبد الوهاب التي ظهرت في القرن الثاني عشر الهجري امتداداً لدعوة ابن تيمية، وكان محمد بن عبد الوهاب يعتني اعتناء كاملًا بكتبه وكتب ابن القيم، وكذلك الحال بالنسبة لمحمد رشيد رضا. وفي شبه القارة الهندية برز أثر كتبهما أيضاً في عديد من طلبة العلم ونُشرت كتبهما على أيدي العلماء هناك.

أسلوب التفسير

يعد كتاب التفسير القيم نسيج وحده بين التفاسير المنتشرة والمعروفة، فهو ليس من تأليف ابن القيم، بل جمع معاصر لأقوال ابن القيم في تفسير كثير من الآيات القرآنية، وهو من التفاسير الفريدة التي حوت علم وفقه وبلاغة، فقد تصدى ابن القيم في مؤلفاته إلى تفسير المشكل من الآيات القرآنية الكريمة، فألقى عليها أضواء علمه ومعرفته وبلاغته، ففسر تلك الآيات بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وبذائقته البلاغية الواضحة وبحجج بينة لا يعتورها لبس ولا تشوبها شائبة، فجاء تفسيره واضحًا سهلًا مستساغا الفهم قريب الطلب.

جمع التفاسير

يقول محمد حامد الفقي في مقدمة كتاب التفسير القيم: «فهذا التفسير القيم للامام ابن القيم جمعه العلامة السلفي محمد أويس الندوي، وبذل فيه جهدًا مشكورًا، قرأ المطبوع من مؤلفات شمس الدين ابن القيم، ثم استخرج منها هذه المجموعة القيمة من التفسير، وهي وإن كانت لم تستوعب تفسير القران كله ولكنها تعتبر تموذجًا صالحًا، يستطيع من تدبرها حق التدبر أن ينتفع بها ويحذوا حذوها، ويسهل عليه فهم القران كله على هذا المنوال».

وفي تطبيق الباحث القرآني

* قال ابن كثير رحمه الله:

سمع الحديث واشتغل بالعلم، وبرع في العلوم المتعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين.

* قال ابن رجب رحمه الله:

كان ابن القيم عارفا بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه، لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية، وتعلم الكلام، والنحو وغير ذلك، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى، ولا رأيت أوسع منه علما، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه.

* قال جامع هذا الكتاب أبو إبراهيم / عبد الرحمن القماش:(١)

لما كان الشيخ الإمام العالم العلامة المحقق، والحبر الفهامة المدقق، بقية السلف، وقدوة الخلف، فريدُ دهره، ووحيدُ عصره ابن قيم الجوزية قد تعرض في كثير من مؤلفاته لبعض آيات الذكر الحكيم، شرحا وتفسيرا، وأفاض الله عليه فِيهَا بِحِكَمٍ فَائِقَةٍ، وَأَلْفَاظٍ رَائِقَةٍ، شرح الله صدري لجمع ما تناثر من هذه الدرر الفاخرة، والنجوم الزاهرة في موضع واحد تيسيرا وخدمة للعلم وأهله.

وقد سميته (مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية)

وقد سبقني لهذا العمل بعض النبلاء، منهم الشيخ محمد أويس الندوي. صاحب (التفسير القيم لابن القيم) في مجلد واحد.

ومنهم الشيخ: يسري السيد محمد. صاحب (بدائع التفسير) في خمسة مجلدات.

وأشهد أنه قد بذل فيه جهدا مشكورا وأتى بتفسيرٍ لبعض الآيات من بين عشرات السطور التي ذكرها ابن القيم.

ومنهم الشيخ: علي الحمد المحمد الصالحي. صاحب (الضوء المنير على التفسير) في ستة مجلدات.

ولم أشرف بمطالعة كتابه إلا بعد الانتهاء من عملي في هذا الكتاب.

وهؤلاء الأجلاء النجباء - جزاهم الله خيرا - لهم فضل السبق، ولهم مني كل تقدير وتحية، وأنا أقلهم بضاعة وأهلية.

ومن هؤلاء الأفاضل مَن رام الاختصار كصاحب (التفسير القيم)

ومنهم من توسط كصاحب (بدائع التفسير) وصاحب (الضوء المنير)

وقد شاءت حكمة الله - تعالت عظمته - أن يختص العاجز الفقير - صاحب هذه السطور - بإلهام منه وتوفيق لاختيار القسم الثالث وهو الإطناب في جمْعِ هذه المادة النفيسة تتميما وتعميما للفائدة (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ).

[إلى أن قال:]

* يتلخص عملي في جمع هذه المادة القيمة في نقاط، أهمها:

١- في بادئ الأمر جمعت المادة العلمية للعلامة ابن القيم - عليه سحائب الرحمة والرضوان - في سبعة عشر مجلدا، ثم بدا لي أن أزيد في الخدمة فزينتها بتعليقات فائقة، ورصعتها بتحريرات شائقة - وإن طالت - لبعض أقطاب المفسرين وأئمتهم - رحمهم الله أجمعين - فاحرص على مطالعتها فقد حوت لطائف وفرائد وأسرار، الواحدة فيها خير من الدنيا وما فيها، يندر وجودها مجتمعة في غير هذا الكتاب، والقرآن - كما هو معلوم - لا تنقضي عجائبه، فهو بحر لا قعر له ولا ساحل، وكلٌّ يغترف منه على قدره، تعالى وتعاظم قائله، وجلَّ وعزَّ منزله القائل (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

وقد بلغ الكتاب بعد هذه التعليقات إلى اثنين وعشرين مجلدا.

٢- جعلتُ جمع أنفس النفائس من المادة العلمية لابن القيم - رحمه الله - في موضع واحد هدفا من أسمى وأهم أهداف هذا الكتاب، فلا تلمني إن خرجت عن طور التفسير - مع إقراري بأني محل للوم والتقصير -، لكن ما حوته كتب ابن القيم من ألفاظ رائقة، ومعاني شائقة قد يشفع للمقصرين أمثالي، ولذلك فقد اجتهدت في جمع بعض المواعظ مع ما يناسبها من آيات الكتاب العزيز، فما أحوج قلوب أهل هذا الزمان إلى مواعظ ابن القيم، ويعلم الله أن الواحدة منها تستحق رحلة سفر، كما ذكر ذلك ابن القيم في بعض المواضع، ويكفي في الإضافة أدنى ملابسة، وقد يشغلنا بهاؤها وجمالها في بعض المواضع فنترك العنان لقلمه - رحمه الله - في الاسترسال في ذكر تلك المواعظ التي تبهر العقول، وتأخذ بمجامع القلوب، ولنا العذر في ذلك، فوالله ما حرصت على ذكرها إلا مبالغة في الإفادة، وبعضها استخرجته من بين السطور - حرصا مني على بثه ونشره.

٣- حرصت على عدم التصرف في نص العلامة ابن القيم - رحمه الله - إلا في القليل النادر - والنادر لا حكم له - كتعديل أو إظهار بعض الضمائر، أو وضع عبارة (اعلم أن) ليستقيم الكلام مع السياق.

كذلك أضفت الصلاة والسلام على خير الأنام - صلى الله عليه وسلم - في بعض المواضع التي خلت منها، وكذلك الترضي عن سائر صحابته - صلى الله عليه وسلم - ورضي الله عنهم أجمعين، وسلكنا في زمرتهم، فاللهم إنا نشهدك ونشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع أننا نحب عبدك ورسولك سيدنا محمدا - صلى الله عليه وسلم - وجميع صحابته - رضي الله عنهم - والمرء مع من أحب.

٤- قد يذكر ابن القيم - طيب الله ثراه - فائدة أو قاعدة لغوية أو بلاغية، ويستدل لها بآية أو بطائفة من الآيات، فيقع الاختيار على إحدى هذه الآيات لتكون عنوانا لتلك الفائدة أو القاعدة العزيزة.

٥- تركت العزو لكتب ابن القيم - رحمه الله - وترجمة الأعلام، وعزو الشعر، لأن هوامش الكتاب مشحونة بتعليقات مبهرة، ودرر فاخرة لكواكب نيرة من أعلام التفاسير الزاهرة.(٢).

٦- وضعتُ فصلا قبل البدء في التفسير بعنوان (مشوقات) ذكرت فيه شيئا يسيرا مما حواه هذا الكتاب من روائع وفوائد، ونكات وفرائد ترغيبا وتشويقا للقارئ الكريم ليقف على شيء من لطائف ونفائس علم العلامة العَلَم ابن القيم.(٣)

٧- ما يخص الفاتحة والمعوذتين من فهرسة.

نظرًا لما اشتمل عليه تفسير الفاتحة والمعوذتين من طول نفس فقد اجتهدت في فهرسة سورة الفاتحة والمعوذتين - قدر الطاقة - تيسيرا وتسهيلا على القراء النبلاء، وقد وفقني الله تعالى لإضافة بعض الفصول والفوائد لسورة الفاتحة من كتب ابن القيم الأخرى إضافة إلى ما هو مذكور في كتاب (مدارج السالكين)، وكذلك الأمر في تفسير المعوذتين تمت إضافات أخرى سوى ما هو مذكور في كتاب (بدائع الفوائد).

٨- اعتمدت في جمع هذه المادة - بعد توفيق الله تعالى - على نسخة المكتبة الشاملة والتي وجدت في بعضها سقطا في بعض المواضع تم إكماله بعد مراجعة النسخ المصورة، كما واجهتني بعض المشاكل والكامنة في رداءة بعض نسخ كتب الشاملة كـ كتاب (مفتاح دار السعادة) و (حادي الأرواح) و (جلاء الأفهام) و (شفاء العليل) وغيرها فقدت اشتملت على كثير من التصحيف، تم تصويبه - بفضل الله وتوفيقه إلا ما وقعت الغفلة عنه.

٩- بعض الأحاديث تحتاج إلى تخريج عسى الله أن يقيض لها من يعمل عليها، وهذا تقصير مني، لكني أعتمد فيه - بعد الله تعالى - على بعض فرسان أهل الحديث لإتمامه وما أكثرهم - لله درهم -، فالوقت ضيق، والأيام معدودة، وساعاتها محدودة، والأنفاس بالعدد، وليس لها مدد، وأنا أسابق الأيام والليالي قبل أفول شمس حياتي، ويا ليتها كانت عامرة بما يبهج في الآخرة،

ولنعم ما قال الإمام الشاطبي في مقدمة الشاطبية:

وَلَوْ أَنَّ عَيْناً سَاعَدتْ لتَوَكَّفَتْ *** سَحَائِبُهَا بِالدَّمْعِ دِيماً وَهُطَّلَا

وَلكِنَّها عَنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ قَحْطُهَا *** فَيَا ضَيْعَةَ الْأَعْمَارِ تَمْشِي سَبَهْلَلَا

١٠- جمعت مادة هذا الكتاب على عجل، ولذلك لم أتمكن من مراجعة بعض مواضعه، وهو تقصير كسابقه.